سلمى الخضراء الجيوسي
ونقد الشِّعر العربي الحديث: الرُّؤية والمنهج

محمَّد أحمد القضاة*

تستدعي دراسات سلمى الخضراء الجيوسي** النَّقديَّة بذل مجهود واسع من البحث والتَّقصِّي، وذلك أنَّها صاحبة مشروع متكامل، سعت من خلاله إلى إبراز قيمة الشِّعر العربي الحديث والمعاصر في دراسات تكامليَّة لم تكن منبتَّة الصِّلة عمَّا رهنت نفسها للقيام به في مشروعين تولَّت إدارتهما، هما: "بروتا" وهو مشروع ثقافي فكري يهدف إلى تعريف الغرب بالشَّرق العربي، ومنجزاته الفكريَّة والثَّقافيَّة والأدبيَّة من خلال عنايتها بترجمة المؤلَّفات الأدبيَّة من مجموعات شعريَّة وقصصيَّة وأعمال روائيَّة وكتب فكريَّة، وقد أسَّسته سلمى الخضراء الجيوسي سنة 1980م، و"رابطة شرق/ غرب" للدِّراسات، الَّتي أسَّستها سنة 1992م، لتعضد مشروع "بروتا"، ولعلَّ هٰذا الرَّبط والشُّمول هو ما يفسِّر أنَّ أغلب مؤلَّفات سلمى الجيوسي كتبت – أصلًا- بالإنجليزيَّة، وهٰذا يؤكِّد أنَّ الأفق الثَّقافي الَّذي دشَّنته، واحتضن جهدها النَّقدي، أوسع من أن يحصر في إطار مؤلَّفاتها النَّقديَّة والبحثيَّة، وهو ما يبرِّر الحديث عن الرُّؤية الَّتي انطلقت منها قبل الولوج في الحديث عن المنهجيَّة النَّقديَّة الَّتي صدرت عنها أعمالها النَّقديَّة بشأن الشِّعر العربي الحديث.

ولعلَّ الرُّؤية الكُلِّيَّة الَّتي انطلقت منها دراسات سلمى الخضراء الجيوسي إنَّما تتمثَّل في سعيها إلى تغيير منظور الغرب إلى الشَّرق العربي ومنجزاته في العصر الحديث، خاصَّة أنَّ تقدير المنجز الحضاري للعرب غالبًا ما يرتبط بالعصور الماضية لا العصر الحديث، ومن هٰذا المنطلق اهتَّمت سلمى الخضراء الجيوسي بمحاولة تقديم دراسات شموليَّة ومتعدِّدة لإبراز القيمة الحضاريَّة للوجود العربي في العصر

* باحث ومحاضر في قسم اللُّغة العربيَّة وآدابها- الجامعة الأردنيَّة.

الحديث؛ ممثَّلة في المنجز الأدبي والشِّعري منه على وجه الخصوص، لقد تحدَّثت عن رؤيتها الكامنة خلف تأسيسها لمشروع "بروتا" بقولها: "مشروع بروتا الَّذي أسَّسته في العام 1980 جاء في وقت غاب فيه تمثيل الثَّقافة العربيَّة في الغرب وفي العالم كلِّه، أي حين غابت ثقافتنا عن السَّاحة العالميَّة، وتغاضى العالم عن هٰذه الثَّقافة وصمتنا نحن عن هٰذا التَّغاضي ورضينا به وخنعنا له. وبالنِّسبة إليَّ كان هٰذا الأمر مهينًا جدًّا. ففي أمريكا اكتشفت رؤية الآخرين لنا ولثقافتنا، فهم كانوا صريحين في التَّعبير عن رأيهم بأنَّ العرب بلا ثقافة، عندها قرَّرت التَّصدِّي لهٰذه النَّظرة والعمل على تقديم صورة حقيقيَّة لثقافتنا، فتركت التَّدريس في الجامعة متخلِّية عن كلِّ الامتيازات الَّتي يتيحها، ورغم كلِّ المعارضة الَّتي واجهتها من الأصدقاء، إذ رأوا في ذٰلك مغامرة وخسارة، وكان مشروع بروتا هو البداية، وهو اليوم... أعتبره أهمَّ مشروع في مجال ترجمة الأدب العربي وفي مجال الدِّراسات الفكريَّة والنَّقديَّة، وقد أنجزنا من خلاله ما يزيد على أربعين كتابًا ومجلَّدًا في حقول مختلفة، بعضها أنجزته وحدي، والبعض الآخر بجهود فريق عمل كنت أشرف عليه، وأنا أعتبر هٰذا إنجازًا مهمًّا لأنَّني لم أحصل سوى على القليل من الدَّعم، ولو أنَّنا حصلنا على دعم أكبر لكان الإنجاز أكبر"[1].

إنَّ هٰذا الهدف الَّذي سعت إلى تحقيقه بجهد شخصي عجزت عنه حكومات ومؤسَّسات علميَّة وثقافيَّة لهو خير دليل على سعة الرُّؤية الَّتي انطلقت منها سلمى الخضراء الجيوسي في جهودها ونشاطاتها البحثيَّة والعلميَّة والثَّقافيَّة، وقد أدركت أنَّ إبراز الوجه الإنساني والحضاري للعرب يجد تمثيله في الأدب على نحو خاص، فهي

(1) سلمى الخضراء الجيوسي: الغرب يقدِّر عاليًا إصدارات "بروتا"، حاورها: عمر شبانة (الإمارات)، منشور على موقع جهة الشِّعر، الخليج، 2006م، وفق الرَّابط:
http://www.jehat.com/jehaat/ar/Ghareeb/2006/salma.htm.

ترى "أنَّ الأدب أقدر من الفكر على توصيل صورتنا الإنسانيَّة"[1].

لقد قدَّمت الجيوسي في مشوارها الطَّويل أكثر من خمسة وثلاثين كتابًا ما بين ترجمة لأعمال أدبيَّة وفكريَّة، ودراسات نقديَّة وتاريخيَّة، وهٰذا الجهد الَّذي اعتنى على نحو خاصٍّ بالأدب العربي قد ترافق بوعي منهجي خاصّ، يمكن كشفه بمتابعة دقيقة لأهمِّ دراستها، ولعلَّ من الشَّائق في هٰذا المجال ملاحظة التَّنوُّع الفريد الَّذي قامت به في سعيها إلى تقييم الصورة الإنسانيَّة للعرب في ماضيهم وحاضرهم، فقد كتبت ثلاث دراسات متخصِّصة لسلسلة تاريخ كمبريدج للأدب العربي، هي "الشِّعر الأموي" و"الشِّعر ما بعد الكلاسيكيَّة: 1250-1850م" و"شعر الحداثة"، وكذٰلك دراستين عن الشِّعر الأندلسي في كتاب أشرفت عليه ضمن مشروع "شرق/ غرب" بعنوان: "الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة في الأندلس"، الَّذي صدر باللُّغة الإنجليزيَّة عن دار بريل الهولنديَّة 1992م، ثمَّ بالعربيَّة عن مركز دراسات الوحدة العربيَّة 1998م.

كما قامت بالتَّعاون مع طوماس طومسون بتحرير وإعداد كتاب بعنوان "القدس أورشليم العصور القديمة بين التَّوراة والتَّاريخ" جمع أعمال ندوة حول القدس أقيمت في عمَّان وضمَّت سبعًا وخمسين دراسة وبحثًا قدَّمها باحثون عرب وأجانب، وتناولت جوانب عدَّة، وقد صدرت النُّسخة العربيَّة عن مركز دراسات الوحدة العربيَّة عام 2003م، وصدرت النُّسخة الإنجليزيَّة "Jerusalem in Ancient History and Tradition" عن دار كونتنيوم في شيفيلد ونيويورك عام 2003 أيضًا.

إنَّ مجمل هٰذا الجهد المميَّز والمتنوّع يظهر رؤية هي من الشُّمول بما يتجاوز محاولة الإحاطة به في هٰذا السِّياق، ولذٰلك ستسعى هٰذه الدِّراسة إلى محاولة الكشف عن الرُّؤية المنهجيَّة في مجال محدَّد من هٰذه الاهتمامات المنوَّعة والمتعدِّدة، وهو ما يمكن أن يعطي صورة كلِّيَّة ومتَّسقة في المادَّة المدروسة، ممَّا يمكِّن من الكشف عن عمق

(1) السَّابق.

الرُّؤية المنهجيَّة واتِّساقها على نحو فريد ومميَّز قادر على حمل الرُّؤية الشُّموليَّة الَّتي أسَّست لمجهوداتها ومشروعاتها البحثيَّة والثَّقافيَّة، ومن الواضح لدى استعراض دراساتها الَّتي قدَّمت عنايتها الفائقة بالشِّعر العربي الحديث، كما تمثَّل في دراستها الموسوعيَّة "الاتِّجاهات والحركات في الشِّعر العربي الحديث"، وما تبعها من دراسات ذات صلة وعلاقة تكامليَّة مع هٰذا الموضوع، وخاصَّة الفصل الَّذي قدَّمته في موسوعة تاريخ كمبريدج للأدب العربي الحديث، وحمل عنوان: "شعر الحداثة"، وبحث آخر بعنوان "بنية القصيدة في الشِّعر العربي عبر العصور" الَّذي قدَّمته في مهرجان جرش، الأردن...، فلعلَّ هٰذه الدِّراسات في تواشجها وتكاملها وشموليَّتها ما يمكِّن من كشف المنهج النَّقدي لدراسات سلمى الخضراء الجيوسي والرُّؤية الكامنة الَّتي تؤسِّس لهٰذه المنهجيَّة.

لقد استطاعت الجيوسي في دراستها أن تحقِّق جملة من الأهداف جعلت هٰذه الدِّراسات تبدو من الشُّمول أكثر ممَّا تعالجه من قضايا وموضوعات، ولعلَّ أبرزها:

1. وضع الإطار التَّوثيقي الخاصِّ بحركات الشِّعر العربي الحديث واتِّجاهاته.
2. إبراز المنجز الإنساني والحضاري للعرب في العصر الحديث.
3. تقييم الحركة الشِّعريَّة العربيَّة في العصر الحديث من زاوية نظر كانت مشاركة ومواكبة لمراحل هٰذه الحركة وتطوُّراتها.

لا شكَّ أنَّ الموضوعات الَّتي طرحتها سلمى الخضراء الجيوسي تستلزم -على نحو فريد-الاهتمام بالتَّاريخ، ليس ذٰلك على صعيد المنهجيَّة الَّتي تناسب الموضوعات الَّتي طرحتها، وهي موضوعات ذات طبيعة تاريخيَّة في الأساس، ولٰكن ذٰلك مطلب أساسي لتجسيد الرُّؤية الَّتي سعت إلى تحقيقها عبر مسيرة طويلة من السَّعي والنَّشاط الحثيثين اللَّذين وجدا تحقُّقهما في جهودها البحثيَّة وأنشطتها الثَّقافيَّة المميَّزة في مشروع "بروتا" و"شرق/ وغرب".

ولمَّا كانت الرُّؤية الَّتي انبثقت عنها هٰذه الجهود والأنشطة تقوم على السَّعي إلى إبراز المكانة الثَّقافيَّة والمنجزات الإنسانيَّة للعرب على مستوًى عالمي، فإنَّ الفاعليَّة الإنسانيَّة ومنجزاتها لا تجد تحقُّقها إلَّا في التَّاريخ، الَّذي هو حصيلة صنيع الإنسان ونشاطاته، وبذٰلك فإنَّ تعاضد الرُّؤية مع موضوعات الدِّراسة هي ما تؤصِّل للمنهج الَّذي انبنت عليه دراسات الجيوسي النَّقديَّة.

ولعلَّ المثير في الأمر أنَّ سلمى الخضراء الجيوسي قد عايشت مراحل متغيِّرة في تاريخ النَّقد الأدبي الحديث، وشهدت ظهور اتِّجاهات ومناهج نقديَّة عدَّة، وسلكت دروبًا متعدِّدة في التَّجارب الشِّعريَّة، لٰكنَّها مع ذٰلك آثرت منهجًا نقديًّا واحدًا كان هو الأساس الَّذي عاينت من خلاله الشِّعر العربي الحديث. سماته واتِّجاهاته وحركاته، فكان المنهج التَّاريخي هو الَّذي استحوذ على اهتماماتها البحثيَّة؛ الأكاديميَّة والثَّقافيَّة، فالمشروع البحثي الخاصُّ بالشِّعر العربي الحديث الَّذي يتَّسم بالشُّمول والاتِّساع من أجل إظهار المنجز الإنساني للعرب، وكشفه في تمثُّله الثَّقافي والحضاري، كما تجلَّى في حركات الشِّعر العربي الحديثة ومسيرته الطَّويلة، إنَّما يتلاءم مع المنهج التَّاريخي، وبذٰلك فإنَّ الحديث عن المنهج بعيدًا عن الرُّؤية لا ينصف الجهد الَّذي قدَّمته النَّاقدة ويظهر تفرُّدها في هٰذا المجال.

لقد أشارت الجيوسي في مقدِّمة كتابها "الاتِّجاهات والحركات في الشِّعر العربي الحديث" إلى المنهج الَّذي ستسلكه في دراسة هٰذا الموضوع، عندما حدَّدت موضوعها بدراسة "التَّطوُّر التَّاريخي الَّذي عرفه هٰذا الشِّعر"[1] ودراسته دراسة متكاملة تتناوله تناولًا شاملًا.

ولعلَّ ما يكشف عن عمق المنهج الَّذي تمثَّلته الجيوسي في دراستها، ووعيها لحيثيَّاته ومرجعيَّاته وقيمته، ثمَّ صلته بالبعد الإنساني للحضور العربي ثقافيًّا

(1) الاتِّجاهات والحركات، ص13.

وحضاريًّا ربطها بين التَّاريخ بما هو ممثِّلٌ للمنجز الإنساني، والعبقريَّة الإنسانيَّة، وذٰلك كلُّه من خلال الشِّعر الحديث، فهي تقول:

"تهدف هٰذه الدِّراسة لذٰلك أن تروي قصَّة العبقريَّة الشِّعريَّة العربيَّة في الزَّمن الحديث. فعن طريق تراكم جهود هٰذه العبقريَّة، استطاع الشِّعر العربي الحديث أن يواصل تطوُّره خلال العقود المتتابعة، منذ نهضته في القرن التَّاسع عشر حتَّى اليوم"[1].

إنَّ الإشارة إلى العبقريَّة لا يشير إلى تحقُّق الفاعليَّة الإنسانيَّة وحدها وهو الأمر الَّذي يتلاءم مع الرُّؤية الَّتي تصدر عنها الجيوسي في نقدها، ولٰكنَّه يشير من جهة أخرى إلى المرجعيَّات الَّتي استقت منها هٰذه المنهجيَّة، فمن المعروف أنَّ المنهج التَّاريخي في الغرب، قد نظر إليه في مرحلة ما من تبنِّيه وتشكُّله على أنَّه قادر على تفسير العبقريَّات الأدبيَّة كما ظهر عند هيبوليت تاين (H. Taine).

وإذا كانت هٰذه النَّظرة في المنهج تنتمي إلى القرن التَّاسع عشر، فإنَّ الجيوسي تكشف عن مصادر تشكُّل هٰذا المنهج وما أضفت عليه من خصوصيَّة، كما أنَّ عناصر هٰذا المنهج المستمدَّة –غالبًا-من طريقة تاين ومنهجه النَّقدي، والَّتي حصرت في ثلاثة عوامل مسؤولة ومتحكِّمة بتشكُّل العبقريَّة الأدبيَّة، وهي: الزَّمن (أو العصر) والجنس (أو العرق)، والوسط (أو البيئة). حاضرة بوضوح في مقدِّمة الجيوسي لدراستها، فإذا كانت قد أوضحت اهتمامها بالعبقريَّة الشِّعريَّة في العصر الحديث وهو ما يشير إلى عنصر الزَّمن (أو العصر). فإنَّها - أيضًا- تشير إلى الوسط والبيئة في قولها:

"إنَّ الاختلافات الإقليميَّة في المزاج، والخلفيَّة الثَّقافيَّة والتَّقاليد الشِّعريَّة، قد ساهمت إلى حدٍّ كبير في غنى التَّجارب الشِّعرية المختلفة وتنوُّعها"[2]. ولا شكَّ في أنَّ ما

(1) الاتِّجاهات والحركات، ص3.

(2) ن.م.، ص14.

يقبع وراء ذٰلك كلِّه إنَّما هو العنصر الثَّالث (الجنس أو العرق) وهم العرب.

إنَّ رؤية نقديَّة ذات حضور منهجي بهٰذا القدر من العمق والشُّمول لهي –حقًّا- قادرة على بلورة حدود الموضوع وحيثيَّات الدِّراسة على نحو دقيق، ولذٰلك أدركت الجيوسي أنَّ ثمَّة فارقًا بين دراسة العبقريَّة الشِّعريَّة ودراسة المنتج الشِّعري أيًّا كان، فهي تحدِّد غايته بقولها: "إنَّ غايتي هنا هي متابعة التَّطوُّر الشِّعري لا مجرَّد تعداد تفاصيل التَّاريخ الأدبي"[1].

إذ إنَّ الفرق واضح بين وضع تاريخ للحركات والاتِّجاهات في الشِّعر العربي الحديث دون حضور رؤية وهدف يتجاوز التَّاريخ لمجرَّد أنَّه التَّاريخ، إلى النَّظر إليه على أنَّه يعكس الفاعليَّة الإنسانيَّة في أبهى حضور لها، أي في بُعدها الحضاري المتميِّز، ولذٰلك في ظلِّ حضور رؤية منهجيَّة خاصَّة تغفل الجيوسي عن قصد بعض الشُّعراء وبعض البلدان العربيَّة من دراساتها، مركِّزة على ما دعته "الدَّور الفعَّال"، وهي تظهر ذٰلك وتبرِّره بقولها:

"فلو أنَّ مبدعًا بين الشُّعراء كان يكتب في عزلة عن المسار الرَّئيسي للشِّعر العربي، وبقي غير معروف لدى الشُّعراء والنُّقَّاد في الوطن العربي، فإنَّ شعره لذٰلك لن يدخل في مجال هٰذا الكتاب، لهٰذا السَّبب كان لا بدَّ لشعر عدد من الأقطار العربيَّة أن يبقى خارج حدود تناولنا في هٰذه الدِّراسة لأنَّه لم يفرض نفسه على حركة الشِّعر الحديث بعامَّة. كما أنَّ إنتاج بعض الشُّعراء قد أهمل على مضض، لأنَّ تجربتهم كانت تشبه تجربة شاعر أكبر كان يكتب في المكان والزَّمان نفسيهما، مثال ذٰلك إنتاج الشَّاعر اللُّبناني صلاح لبكي، الَّذي كان يَفْضُل كثيراً من الشُّعراء الَّذين تناولناهم في هٰذا الكتاب"[2].

(1) ن.م.، ص14.

(2)ن.م.، ص14.

إنَّ ما تحاول الجيوسي أن ترسّخه أنَّ تاريخ الشِّعر الَّذي هو مؤشِّر على البعد الحضاري للإنسان وحصيلة طبيعته لفاعليَّته في الكون يختلف عن أيَّة حالة أخرى من دراسات التَّاريخ، فالتَّاريخ لحركات الشِّعر واتِّجاهاته انتقائي تمامًا كما هو حال الشِّعر والفنّ.

ولعلَّ من أبجديَّات المنهج التَّاريخي المكتنز بالرُّؤية المنهجيَّة على نحو فريد ومميَّز كما هو الحال فيما تقدِّمه الجيوسي -هنا- سيعلي من شأن العوامل التَّاريخيَّة: سياسيَّة واجتماعيَّة وثقافيَّة، وهي الَّتي وجدت مكانها في تفسير (تاين) للعبقريَّة الشِّعرية فيما سمَّاه "الوسط" أو "البيئة"، وهٰذا ما تلحُّ الجيوسي على أهميَّته في تشكُّل حركات الشِّعر واتِّجاهاته في العصر الحديث عند العرب، فهي تقول:

"إنَّ كثيرًا من المؤشِّرات والأحداث المهمَّة في التَّاريخ السِّياسي للوطن العربي، في غضون المائة وخمسين سنة الماضية، قد جرى قبولها اعتباطًا عند بعض النُّقَّاد، على أنَّها مؤشِّرات للتَّغيُّر الشِّعري، لٰكنَّ النَّظرة الفاحصة تبرهن في الغالب على أنَّ حدثًا شعريًّا معيَّنًا قد لا يكون متَّصلًا اتِّصالًا مباشرًا بأحداث سياسيَّة خاصَّة، بل بعوامل اجتماعيَّة أو فنِّيَّة، أو بهٰذه وتلك أحيانًا"[1].

وتؤكِّد هٰذه الفكرة – مرَّة أخرى- رابطة بينها وبين أثرها في الإنسان واستجابته لها استجابة تحفِّزه لإقامة منجزه الحضاري، بقولها:

"المهمُّ عادة ليس الحدث، بل استجابة النَّاس إليه وقدرتهم على استيعاب معنى ذٰلك الحدث كاملًا وترجمته إلى فنٍّ معبِّر"[2].

إنَّ مثل هٰذه الالتفاتات هي ما تؤكِّد عمق الرُّؤية ونضج المنهجيَّة لإقامة تصوُّرات شموليَّة بالقدر الَّذي يتجاوز عمل المؤرِّخ الأدبي الَّذي يركن إلى إحصاء الأدباء

(1) ن.م.، ص15.

(2) ن.م.، ص15.

وإحصاء أعمالهم الأدبيَّة دون تمييز وتمحيص يكشف عن أهميَّة النَّاقد ووظيفته الثَّقافيَّة والتَّاريخيَّة بعده المبرمج للتُّراث الإنساني والحافظ له والقادر على اكتشاف أبعاد جديدة وآفاقٍ غير مرتادة للشُّعراء.

وإذا كانت الرُّؤية المنهجيَّة بهٰذا الشُّمول وهٰذه السِّعة فلا بدَّ لها من أن تسعى إلى إقامة صورة مستوفاة عن النَّموذج الشِّعري الممثِّل للبعد الإنساني في تجلِّيه الحضاري، ويصلح بعد ذٰلك الحديث عن التَّاريخ كما يرتسم في مخيِّلة الإنسان وعاطفته وشعوره، وبالجملة في الوجدان الإنساني بمفهومه الشَّامل، وهٰذا ما تشير إليه الجيوسي عندما تختزل نظرتها إلى التَّاريخ العربي الحديث من هٰذا المنظور، وترى في مبدأ حركتيه عوامل محفِّزة للإنتاج الشِّعري، فتقول:

"إنَّ تاريخ العرب الحديث تاريخ ثورة وكفاح، وإخفاقات تكسر القلب، ومساعٍ كابية، ومعاودة كفاح وثورة، هٰذه الأسباب، إلى جانب الاتِّصالات الثَّقافيَّة المستمرَّة، هي الَّتي خلقت النَّموذج الأعلى للشَّاعر العربي الحديث الأكثر تطوُّرًا: شاعر موزَّع النَّفس، عميق الجرح، تحكمه نزعات شتَّى من الغضب، والرَّفض، والرُّعب"[1].

إنَّ هٰذه النَّظرة الشُّمولية الَّتي تفسِّر حالات غريبة في شعر الشُّعراء العرب في العصر الحديث إذ يلحظ هٰذا التَّعرُّج والتَّقلُّب بين حالات الفرح والحزن، الأمل واليأس، الحياة والموت كما يتجلَّى عند شعراء أمثال أبي القاسم الشَّابّي وبدر شاكر السَّيَّاب وخليل حاوي وغيرهم.

كما أنَّ هٰذه النَّظرة قد وسمت دراسة سلمى الجيوسي باهتمام ثنائي كما تشير، فهي تهتمُّ "بالعوامل الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة بوصفها قوًى مهمَّة لعبت دورًا في ما حدث من تغيُّر كبير في وعي الموهبة العربيَّة المبدعة وطريقة تفكيرها. وهي في الوقت نفسه، تحاول النَّظر في التَّغيُّرات النَّفسيَّة الَّتي حدثت في المواقف، ووجهات النَّظر

(1)ن.م.، ص16.

عند العرب، وفي تأكيداتهم العاطفيَّة، فانعكست في شعرهم"[1]، وهٰذا ما يؤكِّد شموليَّة الدِّراسة وعمقها.

ولا بدَّ كذٰلك من الإشارة إلى الخصوصيَّة الَّتي تنتهجها الجيوسي في تبنِّي المنهج التَّاريخي الَّذي اتَّبعته، فهي تهتمُّ بالتَّطوُّر الدَّاخلي للفنِّ، مستفيدة ممَّا قدَّمه فردينان برونتيير بشأن تطوُّر الأجناس الأدبيَّة وانتقادات رينيه ويليك لفكرة التَّطوُّر، وهو ما جعل الباحثة تسعى إلى البحث عن القيم الفنِّيَّة في الشِّعر والبحث في القوانين الدَّاخليَّة الخاصَّة بنموِّه وتطوُّره[2].

وتشير -أيضًا- إلى "أنَّ تطوُّر الشِّعر العربي الحديث هو تاريخ تطوُّر هٰذا الفنِّ في سعيه الدَّؤوب نحو المعاصرة، وقد كانت حركته الحثيثة نحو هٰذا الهدف أمرًا معافًى أملته غريزة فنِّيَّة صائبة. كان هدف هٰذه الحركة هو أن تصل بالشِّعر العربي إلى المستوى العالمي، لا أن تساير فقط الإطار الفكري والحياتي للعرب المعاصرين"[3]، فمن الواضح أنَّ الرُّؤية الَّتي تشكِّل المنهج الَّذي تؤسِّس له سلمى الخضراء الجيوسي، وتقيم دراستها للشِّعر العربي الحديث على أساسه، مرتبطة برؤيتها الكلِّيَّة الَّتي سبق الحديث فيها عن سعيها إلى الكشف عن المنجز الحضاري الإنساني للعرب في العصر الحديث وتقديمه للعالم، لتغيير تصوُّراتهم عن العرب بأنَّهم شعب بلا ثقافة.

وفي ظلِّ هٰذا السَّعي الحثيث للكشف عن التَّطوُّر الفنِّي للشِّعر، والَّذي تراه تعبيرًا عن الحاجات الرُّوحيَّة والحضاريَّة للإنسان، تحدِّد هٰذه القيم بقولها: "إنَّ النَّتيجة الَّتي يميل إليها المرء هي أنَّ مقياس القيم الفنِّي يتكوَّن من مجموعتين من القيم: واحدة رهينة معقَّدة ثابتة تستعصي على التَّحديد، تلازم الفنَّ الجيِّد جميعه، وأخرى

(1) الاتِّجاهات، ص17.

(2)ن.م.، ص18.

(3)ن.م.، ص19.

مجموعة من قيم متغيّرة هي جزء من عمليَّة التَّطوُّر التَّاريخي للفنّ. هٰذه العمليَّة قد تدعو أحيانًا إلى التَّغيير فتجعله ضروريًّا"[1].

ومن الواضح أنَّ المنهج التَّاريخي الَّذي تستند إليه لا يملك الأدوات الكافية للتَّعامل مع القيم الفنِّيَّة بالشِّعر على نحو دقيق ومنهجي.

إنَّ هٰذه المحدِّدات المنهجيَّة الَّتي حكمت النَّظرة النَّقديَّة الَّتي قامت عليها دراسات سلمى الخضراء الجيوسي مرتكزة على رؤية كلِّيَّة وشاملة وهدف واضح المسعى وهو ما يظهر مكانة هٰذه النَّاقدة الفذَّة وقيمة الجهد النَّقدي الَّذي قدَّمته.

ولا شكَّ أنَّ هٰذا السَّعي قد جاء لتوطيد رؤية منهجيَّة تجاوزت بها الدِّراسات النَّقديَّة إلى إقامة مشاريع ثقافيَّة تجعلها مهتمَّة بمتابعة التَّطوُّرات والحركات الشِّعريَّة في مراحلها المختلفة، فقد تابعت سلمى الخضراء الجيوسي جهدها النَّقدي في دراسة الشِّعر العربي الحديث الَّذي قدَّمته في كتابها "الاتِّجاهات والحركات في الشِّعر العربي الحديث" في الفصل الَّذي قدَّمته في كتاب "تاريخ كيمبردج للأدب العربي". الأدب العربي الحديث، فقد كتبت الفصل الخاصَّ بالشعر العربي الحداثي، وهو – في النِّهاية-متابعة لما انتهت به في كتابها الهامّ السَّالف الذِّكر، إذ انتهى مع زمن كتابته في بداية السَّبعينات من القرن العشرين، وقد جاءت هٰذه الدِّراسة استكمالًا لذٰلك.

في حديثها عن الشِّعر العربي الحداثي تتابع أيضًا المنهج ذاته الَّذي تمثَّلته في مختلف دراساتها ونشاطاتها الثَّقافيَّة. فقد بدأت بمحاولة كشف القوى المؤثِّرة في إنتاج الحداثة الشِّعرية عند العرب، وحصرتها في قوَّتين رئيستين: "تأثير حركة الحداثة الغربيَّة مع ما سبقها أو رافقها من تجارب رئيسة أخرى، من ناحية، ووضع الشِّعر العربي نفسه في أواسط القرن العشرين. إذ استجاب للحاجة الدَّاخليَّة إلى

(1) الاتِّجاهات، ص20.

استيعاب أكثر "حداثة" للتَّجربة، سواء كانت جماليَّة أم غير ذٰلك"[1].

إنَّ حصيلة هٰذه الفكرة ترجع تشكُّل الحداثة الشِّعرية إلى قوَّتين: الأولى خارجيَّة ناتجة عن وقوع العرب تحت تأثير الثَّقافة الغربيَّة، والثَّانية داخليَّة نابعة من حاجة داخليَّة ملحَّة إلى التَّحديث، ولم تكن مجرَّد تبنٍّ مقصود وواعٍ أو موضة. لقد شكَّل ذٰلك إطارًا أساسيًّا لتصوُّرات الجيوسي للحداثة الشِّعريَّة العربيَّة، وهو ما حاولت تأكيده بمحاولة الرَّبط بين الحداثة العربيَّة بصفتها حالة منجزة في "شعر التَّفعيلة" الَّذي كان التَّجلِّي الأكثر وضوحًا لهٰذا الوضع الحداثي، وما سبقها من محاولات تجريبيَّة مع تأثيرات الرُّومانسيَّة والرَّمزيَّة في الشِّعر العربي، وإذا كان كلا الاتِّجاهين قد صدرا عن الغرب، فإنَّ القناعات الَّتي أسَّست عليها الجيوسي نظراتها لحركات الحداثة في الشِّعر العربي جعلتها تسعى إلى ربط تبنِّي الشُّعراء العرب للرُّومانسيَّة أو الرَّمزيَّة بالتُّراث الشِّعري، وهي تشير إلى ذٰلك بقولها:

"وينبغي أن نتذكَّر أنَّ موقف الشُّعراء العرب الشَّامل من التَّبنِّي كان دائمًا مؤطَّرًا بقدرة ذٰلك الحسِّ على التَّحرُّك في اتِّجاهات غير مألوفة في التُّراث الشِّعري التَّقليدي"[2].

وجوهر هٰذه الفكرة متشكِّل فيما تبرير الحداثة الشِّعريَّة عند الجيوسي بربطها بالحاجات الدَّاخليَّة إلى التَّحديث، ولعلَّه من الواضح أنَّ إدراك تجربة الحداثة الشِّعريَّة العربيَّة عندما يؤسَّس على مثل هٰذا الوعي بالحاجات الدَّاخليَّة الملحَّة للتَّغيير لا تبتعد – بشكل أو بآخر-عن رؤية خاصَّة ترى في المنجز الشِّعري الحداثي تحقيقًا لحاجات الوجود الإنساني، ومن ثمَّ نجد أنفسنا – مرة أخرى-أمام أساسيَّات المنهج التَّاريخي ومرتكزاته الأوَّليَّة.

(1) تاريخ كمبردج، ص195.

(2) كيمبردج، ص205.

ثمَّ إنَّه لا شكَّ في أنَّ هٰذه الدِّراسة حول الشِّعر العربي الحداثي قد أنجزت في إطار مشروع "تاريخ كمبريدج للأدب العربي" ولذٰلك لم يكن مستغربًا أن تظهر حالات التَّحقيق والتَّقسيم التَّاريخي لهٰذه الحركة الحداثيَّة وقد قسَّمتها الجيوسي إلى أوجه ثلاثة:

1- **الوجه الأوَّل (1948-1967)**[1].

وقد أظهرت فيها مظاهر الحداثة في جوانب الشَّكل الشِّعري وفي الإيقاع واللُّغة الشِّعريَّة. ولعلَّه من الملحوظ أنَّ تحديد ذٰلك في هٰذه الفترة مرتبط بأحداث تاريخيَّة هامَّة؛ فهي ربط مباشر للحداثة في تشكُّلها وتمظهرها الأوَّل بهزيمتي العرب أمام إسرائيل في حربي 1948م و1967م.

2- **الوجه الثَّاني: السَّبعينات**: بما جسَّده هٰذا الوجه من الحداثة من جرأة على الإبداع والتَّجريب[2].

3- **الوجه الثَّالث: الثَّمانينات**: وقد تجسَّد بما جرى من تحوُّل في الرُّؤية والنَّبرة، "فما أن توقَّف الشَّاعر عن النَّظر إلى نفسه بطلًا ومحرِّرًا حتَّى تغيَّرت وبالضَّرورة نبرته وبناؤه الشِّعري"[3]. فتجاوز الشِّعر النَّبرة البطوليَّة المتعالية، وبدا الاهتمام باليومي والمعاش هو أساس الرُّؤية الشِّعريَّة وما يتمخَّض عنها من أسلوب في التَّعبير والمعاينة الشِّعريَّة.

إنَّ مجمل ما جاء في هٰذه الدِّراسة يوضِّح عمق الرُّؤية المنهجيَّة الَّتي تصدر عنها الجيوسي في دراستها وتجذُّرها في المنحى التَّاريخي الَّذي يجعل الإنسان مركز هٰذه الرُّؤية ومنتهاها في الوقت ذاته.

---

(1) تاريخ كمبريدج، ص215.

(2) ن.م.، ص250.

(3) ن.م.، ص257.

أمَّا في دراستها الثَّالثة الَّتي بحثت فيها قضيَّة "بنية القصيدة العربيَّة عبر العصور" واهتمَّت بشكل تامٍّ بثبات بناء القصيدة التَّقليديَّة لفترة قاربت الخمسة عشر قرنًا فقد رأت فيها أنَّ هٰذه البنية كانت قادرة على استيعاب التَّجارب الحسِّيَّة الأولى للشِّعر، ثمَّ مناجاة الصُّوفيِّين، وبعد ذٰلك التَّجارب العاطفيَّة للرُّومانسيِّين من مرح وحزن، وما جاء به القوميُّون من صلابة وعاطفة مشبوبة، ثمَّ الإيماء والإيحاء عند الرَّمزيِّين، كلُّ ذٰلك استوعبه شكل القصيدة وطاع الشِّعر لهم جميعًا على حدِّ تعبير النَّاقدة"[1].

وقد رأت في هٰذا الثَّبات الشكلي للقصيدة وما اتَّسمت به من مناعة شكليَّة ردًّا على من هاجموا شكل القصيدة التَّقليدي بسذاجة نقديَّة لم يتمكَّن خلالها المهاجمون من وعي القيمة الجماليَّة لبنية القصيدة.

إنَّ هٰذا الموقف يظهر بوضوح أنَّ الرُّؤية الَّتي انبثق عنها موقف سلمى الخضراء الجيوسي عن الشِّعر العربي قد تبلورت وفق موقف صارم يقدِّر المنجز الشِّعري للعرب في مراحله التَّاريخيَّة المتعدِّدة. دون تحيُّز لمرحلة على أخرى، وهي سمة تظهر فاعليَّة المنهجيَّة وموضوعيَّتها في الدِّراسة.

وفي الختام لا شكَّ هٰذه الدِّراسات الثَّلاث لا تؤكِّد عمق التَّجربة النَّقديَّة الَّتي تقدِّمها سلمى الخضراء الجيوسي وغناها فحسب، وإنَّما تظهر أنَّها تجربة منهجيَّة أصلية ذات ارتباطات رؤيويَّة واضحة وأهداف مشرِّفة.

(1) الجيوسي، سلمى الخضراء، بنية القصيدة العربيَّة عبر العصور: المقاومة والتَّجريب، ضمن: صالح فخري (محرِّر): المؤثِّرات الأجنبيَّة في الشِّعر العربي المعاصر، الحلقة النَّقديَّة في مهرجان جرش...،.

المراجع

**سلمى صبحي الخضراء الجيوسي ناقدة وأديبة وشاعرة ومترجمة وأكاديميَّة فلسطينيَّة، ولدت في عام 1928 من أب فلسطيني وأمٍّ لبنانية في مدينة السَّلط في الأردن. عاشت بداية حياتها في مدينة عكَّا وترعرعت ونشأت ودرست الثَّانويَّة في كلية شميت الألمانية في مدينة القدس. وانعكست تفاصيل القضيَّة الفلسطينيَّة في نشأتها هٰذه، وبعد نكبة عام 1948 انتقلت إلى الأردن، ثمَّ درست الأدبين العربي والإنجليزي في الجامعة الأمريكيَّة في بيروت كما درست في جامعات الخرطوم والجزائر وقسنطينة، ثمَّ حصلت على درجة الدُّكتوراه في الأدب العربي من جامعة لندن.

أفادت الدُّكتورة الجيوسي من تجارب حياتيَّة كثيرة، حيث سافرت إلى بلدان عديدة في العالم العربي وأروبَّا، والولايات المتَّحدة الأمريكيَّة وعملت أستاذة للأدب العربي في عدد من الجامعات العربيَّة والأمريكيَّة قبل أن تترك التَّعليم الجامعي لتؤسِّس مشروع ترجمة الآداب العربيَّة المعروف (بروتا)، وحرَّرت سلمى الجيوسي أكثر من ثلاثين عملًا من أعمال بروتا، ومن بين هٰذه الأعمال خمس موسوعات ضخمة للأدب العربي وهي:

- **الشِّعر العربي الحديث**، منشورات دار جامعة كولومبيا، نيويورك 1987؛
- **أدب الجزيرة العربيَّة**، نشر كيغان بول عام 1988 ثمَّ جامعة تكساس 1990 و 1994؛
- **الأدب الفلسطيني الحديث**، منشورات جامعة كولومبيا، نيويورك 1992، 1993، 1994؛
- **المسرح العربي الحديث**، (بالاشتراك مع روجر آلن)، دار جامعة إنديانا 1995.
- **القصَّة العربيَّة الحديثة**، 104 قاصًّا.

نشرت دار بريل (ليدن) كتابها "الاتِّجاهات والحركات في الشِّعر العربي الحديث" في جزأين عام 1977، وتُرجم الكتاب إلى العربيَّة. وكانت قد قامت في مطلع السِّتينات بترجمة عدد من الكتب عن الإنجليزيَّة منها كتاب لويز بوغان "إنجازات الشِّعر الأمريكي في نصف قرن" (1960)، وكتاب رالف بارتون باري "إنسانيَّة الإنسان" (1961)، وكتاب آرشيبالد ماكليش "الشِّعر والتَّجربة" (1962)، والجزأين الأوَّلين من رباعيَّة الإسكندريَّة للورنس داريل "جوستين" و"بالتازار". كما حرَّرت كتاب "تراث إسبانيا المسلمة"، وهو مجموعة كبيرة من ثمان وأربعين دراسة متخصِّصة عن جميع مناحي الحضارة الإسلاميَّة في الأندلس، وقد كتب لها فيه أكثر من أربعين أستاذًا متخصِّصًا من أمريكا وأوروبَّا والعالم العربي، وقد صدر عن دار بريل في هولندا عام 1992، في الذِّكرى المئويَّة الخامسة لنهاية الحكم الإسلامي في الأندلس، ثمَّ أعيد طبعه عدَّة طبعات، آخرها طبعة ورقيَّة (1994). وأشرفت على تحرير السِّيرة الشَّعبيَّة الشَّهيرة: "سيف بن ذي يزن"، وصدر لها موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر - الجزء الأوَّل: الشِّعر، المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، بيروت، 1997. ولها عدد كبير من الدِّراسات والمقالات النَّقديَّة المنشورة في عدد من الصُّحف العربيَّة والأجنبيَّة، وحضرت عددًا من المؤتمرات والنَّدوات وشاركت فيها ببحوث متميِّزة. وهي عضو الهيئة الاستشاريَّة لشبكة مرايا. وحصلت سلمى الجيوسي على العديد من الجوائز منها؛ وسام منظَّمة التَّحرير الفلسطينيَّة عام 1990. والجائزة التَّكريميَّة الَّتي يقدِّمها اتِّحاد المرأة الفلسطينيَّة في أمريكا عام 1991، ووسام القدس 1999، ووسام المجلس الوطني للثَّقافة، الكويت 2002، وجائزة جمعيَّة الخِّريجين العرب الأمريكيِّين 1996. وتتَّصف النَّاقدة سلمى الخضراء الجيوسي بالموضوعيَّة النَّقديَّة، وتمتلك رؤية فكريَّة ثاقبة؛ خاصَّة أنَّها تخالف أصحاب الفكر التَّعميمي السَّهل الخالي من النَّكهة والطَّلاوة والاقتحام والتَّجدُّد والسُّؤال الجريء؛ ولذلك تراها تنظر إلى تلك العقول الرَّاضية

بمفاهيمها الملقَّنة بشيء من الاستغراب وهو أشدُّ ما تبغضه، لأنَّها ترى أنَّ هٰذه العقول تعرف طريقها جيدًا في محيطها المألوف، إلَّا أنَّ هٰذا هو الطَّريق الميسور إلى نوع أو آخر من العبوديَّة. وترى أنَّه في العالم العربي يحدث كثيرًا أنَّ أصحاب الرَّأي المخالف الجديد الَّذي لا يذعن للمواريث المتآكلة بفعل الزَّمن، ويفعل ما أحدثه الإبداع الإنساني من تغيير جذري في مفهومنا للكون، يساء فهمهم، وقد يتعرَّضون إلى نوع أو آخر من الاضطهاد الاجتماعي أو السِّياسي أو الشَّخصي، غير أن لا شيء يبني الكون ويجدِّد إمكاناته الخلَّاقة إلَّا المغامرة إلى الخارج، خارج كلِّ المفاهيم المستقرَّة الَّتي برهنت على إفلاسها.

لا تتوقَّف سلمى الجيوسي عند هٰذه الرُّؤية فحسب؛ وإنَّما تخالف الآراء الَّتي تتَّسم بنوع من الالتزام، وتجده صورة جامدة لما ينبغي القيام به في ظلِّ عقل منفتح يفهم طريقه في زمن لا يقبل السُّكون والجمود؛ لأنَّ السُّكون في اتجاه واحد قد يفضي إلى التَّقيَّة الَّتي تتقاطع مع حرِّيَّة العقل، والمتابع لرؤية الجيوسي يرى أنَّها تختلف مع أصحاب نظريَّة الإبداع الموسمي إذا جاز التَّعبير؛ لأنَّ الإبداع الحقيقي حسب رأيها خارج الزَّمان والمكان، ولٰكن أنَّى لعربيٍّ أن يعيش في زمنه وأن يبدع لكلِّ الأزمنة ولكلِّ الأمكنة، ولا يتوقَّف نقدها لهٰذه المسألة بل نجدها توجِّه نقدًا لاذعًا لقضيَّة الحداثة كونها أصبحت زيًّا يتحدَّث به كل من يرغب. وكانت أغلب التَّأكيدات تقع على الشَّكل وعلى تركيب العبارة والصُّورة. الحداثة بحسب رأيها هي خروج من المألوف المعاد، وتجديد في التَّقنيَّة، الحداثة أن تكون كغيرك في هٰذا العصر، ضحيَّة محتملة لتعقيدات هٰذا الزَّمن المركَّب، كثير المصاعب.

سلمى الخضراء الجيوسي يستهويها النَّقد، خاصَّة التَّأريخ الأدبي، وقد كتبت أطروحتها للدُّكتوراه عن الشِّعر العربي الحديث منذ القرن التَّاسع عشر حتَّى العام 1970، وأرَّخت فيه لكلِّ ما حصل للشِّعر العربي منذ عصر النَّهضة بتقنيَّاته وعناصره

جميعها، واكتشفت أنَّ أسلوب التَّاريخ الأدبي الَّذي كان سائدًا في الشعر العربي كان يربط جميع الحركات والمدارس الَّتي مرَّ بها الشِّعر الحديث بالتَّغيُّرات الاجتماعيَّة والسِّياسيَّة الَّتي كانت تحدث خارج التَّجربة الفنِّيَّة

_ الجيوسي، سلمى الخضراء، الاتِّجاهات والحركات في الشِّعر العربي.

_ الجيوسي، سلمى الخضراء، "بنية القصيدة العربيَّة عبر العصور، المقاومة والتَّجريب"، المؤثِّرات الأجنبيَّة في الشِّعر العربي المعاصر، الحلقة النَّقديَّة في مهرجان جرش، تحرير: صالح فخري، المؤسَّسة العربيَّة، بيروت، 1995م.

_ الجيوسي، سلمى الخضراء، الشِّعر العربي الحداثي، تاريخ كمبردج للأدب العربي، الأدب العربي الحديث، (تحرير): عبد العزيز السَّبيل وأبو بكر باقر ومحمَّد الشَّوكاني، النَّادي الأدبي الثَّقافي، جدَّة، المملكة العربيَّة السُّعوديَّة، ط1، 1423هـ-2002م.